

لقد نظموا الزجل بلغة مجردة من الإعراب ومزدحمة بالكلمات التي هي من أصل محلي أو بربري. وكل ذلك ظهر بسبب التعدد الثقافي الذي عرفته الأندلس، واختلاط الشعوب الأندلسية ببعضها. 19 والزجل في الاصطلاح، يعد الزجل بهذه الصورة موشحاً ملحوناً إلا أنه ليس من الشعر الملحون. بالنسبة لتاريخ الفكر الأندلسي، 20 يمثل الزجل الفن الثاني المستحدث في الأندلس بعد الموشح، وقد تباينت آراء المؤرخين القدماء في نشأة هذا الفن، ولو أنهم يتفقون على أن الزجل وليد البيئة الأندلسية، وقد ظهر الزجل بعد الموشح إلا أن بعض الباحثين من عرب ومستشرقين يرون عكس ذلك. 21 إن الذين يرون أن الزجل سابق للموشح، انطلقوا من نص ابن بسام حول الموشحات الأندلسية القائل بأن محمد بن محمود القبري " كان يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز، معتقدين في ذلك بأن هذه الألفاظ وجدت في قصائد عامية، ولم يكن لهم دليل قاطع فيما يذهبون، ولعل مما ساعد على نشأة الزجل في الأندلس ما كان من شيوع الموشحات بين العامة والخاصة. 22 وقد اتفق مؤرخو الأدب الأندلسي على أن الموشح أسبق من الزجل، ومنهم ابن خلدون الذي قال : " ولما شاع التوشيح في أهل الأندلس، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، واستحدثوا فنا سموه الزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة " 10. ويتضح من كلام العلامة ابن خلدون أن الزجل الأندلسي نشأ تقليداً للموشح. نظموا فنا آخر بعامية أهل الأندلس وسموه الزجل، وكان لاختراع هذا النظم تلبية لحاجة العامة في القول الرفيع والغناء المنسجم. 24 إن عامية أهل الأندلس كانت بعيدة بعداً شديداً عن اللغة الفصحى، لاتصالها بلهجات متعددة غير عربية من جهة، واختلاف أصول الأندلسيين من جهة أخرى. لأنه لو كانت لغة الزجل الأندلسي هي لغة العامة نفسها، لما انتشرت أزجال الأندلسيين في العراق وبلاد الشام واستعذبها المشاركة ونسجوا على منوالها. 25 وقد ذهب صفي الدين الحلبي إلى أن : " أول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصدة وأبياتاً مجردة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لا يغيره بغير اللحن العامي، وقد عدّ صفي الدين الحلبي للشاعر ابن عبد الله مدغليس زجال الموحدين في الأندلس، 26 إن ما يلاحظ من خلال هذا الكلام هو أن صفي الدين الحلبي لم يكن يعلم أن هذا النوع من الشعر الذي لا يختلف عن القصيدة إلا من حيث اللحن، يسمى عند المغاربة الشعر الملحون وقد سبق الموشح بزمان طويل وهو من نسج العوام. لذا لا يمكن أن نسمي كل ما حاد عن الإعراب زجلاً. أما القصائد الزجلية التي ذكرها صفي الدين الحلبي فقد ظهرت في مرحلة من مراحل تطوّر الزجل، لأنه لا يمكن أن نعد مدغليس الذي جاء بعد أبي بكر بن قزمان من منشئي الزجل. 27 أما الزجالون الأندلسيون الأوائل فقد ظهرت في أواخر القرن العاشر الميلادي، فنسبت أسماءهم بعدما ظن المؤرخون أن هذا النوع من الفن هو من الموشحات الملحونة، عبد العزيز : الزجل في الأندلس. 28 لم يصل إلينا من زجل المتقدمين إلا ما يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، فكان الزجل في هذا العصر قد اتضحت معالمه الفنية، أما الأزجال الأولى فقد كسدت ووقع لها ما وقع للموشحات في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وفي القرن الثاني عشر الميلادي ازدهر فن الزجل بسبب تذوق المرابطين لهذا النوع من الشعر وليس لنفورهم من اللغة الفصحى كما ذهب بعض الباحثين العرب 12. 13 – ابن قزمان : الديوان، – المعهد الأسباني العربي للثقافة، 29 مر الزجل الأندلسي بأطوار لغوية مختلفة، ثم بدأت تتسرب إليه عناصر اللهجة الأندلسية حسبما تقتضيه ضرورة الوزن والغناء عند أهل الأندلس، الذي مهّد الطريق في ديوانه إلى العناصر اللغوية العامية التي غزت اللغة الرفيعة في الزجل وقد أشار إلى ذلك في ديوانه 13. ابن حجة : بلوغ الأمل في فن الزجل، بل سوء فهم كلامه هو الذي جعل صفي الدين الحلبي يعتقد أن الإعراب لا يجوز في الزجل لخلطه بين الشعر غير المعرب والشعر الملحون العامي. لا تعتبر القصائد العامية أزجالاً حتى وإن كانت مقطعية الشكل، وهناك لغة عامية ليس فيها شيء من الاطراد إلا التغير، والزجل نهج اللغة الأولى حتى لا يتغير لفظه ونطقه عبر الزمن. 32 ولغة الزجل تتألف من هذه اللغة غير المعربة بالإضافة إلى عناصر لغوية أندلسية اختلطت فيها لهجات شمال إفريقيا مع لسان الوافدين من المشاركة والعناصر المحلية المولدة والمبتكرة التي يبيحها الزجال في نظمه. لأنه لا يمكن لأي أحد كان أن يقول زجلاً، 15 – ابن قزمان : الديوان. فقد جاء التنظيم في الزجل كما جاء أيضاً في الموشح، وهو اللحن في الموشح والإعراب في الزجل. 34 ويجب أن نشير أيضاً إلى أن الزجالة لم يولوا اهتماماً لعجمية أهل الأندلس. متناثرة في أثناء أزجال الإمام ابن قزمان، وما جاء على لسان العجم والعجميات في أزجال الحوار. ذلك لأن لغة الزجل غير معربة، فيلجأ الزجال إلى الفصحى بدلاً من الألفاظ العجمية، كأن يمهّد للخرجة بألفاظ تدل على أن الزجل قد أوشك على النهاية. 35 لقد استخدم الإمام أبو بكر بن قزمان في أزجاله بعض المقطوعات بالعجمية. أما المستشرقون فقد أولوا اهتماماً بالزجال الأندلسية وبالأخص ديوان ابن قزمان، وقد زعموا أن الزجال الأندلسي نظم بعض الخرجات الزجلية باللغة العجمية. 36 لكن خرجات الزجل لم تكتب بالرومانسية كما يذهب هؤلاء المستشرقون، وإنما وجدت بعض الألفاظ في ثنايا أزجال ابن قزمان لا علاقة لها بالوزن أو

الموسيقى أو القافية، ولم نجد ألفاظا عجمية عند الزجالة الذين تقدموا الإمام ابن قزمان أو عاصروه أو خلفوه،³⁷ أما العناصر التي يتكون منها الزجل فهي العناصر نفسها التي سبق إليها الوشاحون شكلا واصطلاحا في موشحاتهم، وغالبا ما تكون الخرجة في الزجل بلغة فصيحة حسب ما وصل إلينا من أزجال، لأن الزجل ينظم بلغة غير معربة أو ما يشبهها، ولذلك يلجأ الزجال إلى نظمها بالفصحى. أو تشاركها ألفاظ عربية وأندلسية محلية. حوارا بينه وبين رومية، وكان أبو بكر بن قزمان يستعذب بعض الألفاظ العجمية في أزجاله. ومثل هذا الحوار أوهم بعض المستشرقين بأن الزجالين أخذوا مقطوعات من أغان عجمية، يمكن القول إن لغة الزجل هي تلك اللغة التي يفهمها فئة واسعة من المجتمع، وهي لغة مهذبة سادت الزجل منذ نشأته إلى غاية القرن الثاني عشر الميلادي، وهو بداية ازدهار الزجل الذي كان في الحقيقة بداية انحطاط مذهبه ولغته حتى ظن أحد المستشرقين أن الأزجال، الأندلسية نظمت للشارع¹⁷. وقد أولى المستشرقون هذه الجوانب اهتماما بالغا